آخر كلام

د. سليمان العطار

لأنهم قبل الموت لا يعيشون !

يوقظ جدّى كل فتيان البيت قبل صلاة الفجر ومن بينهم كاتب هذه السطور لنجد موقدا معدًّا، يجمّر عليه رغيفين يعطى كل فتى من الأحفاد فص ملح وكسرة خبز. نأكلهما بتلذذ مذهل. كانت تلك الوجبة تسمى المفاولة. إنها مصدر فيزيقى للتفاؤل. نَنْفَضّ من حول الموقد فى موكب بهيج نحو المسجد نتوضا كالأوز الأبيض ونحن نرتعد ونهز أجنحتنا الغضة من رعدة نسيم عليل يحمل أريج كل زهور محاصيل القرية. نستمع فى حضرة الملائكة إلى قرآن الفجر من صوت مخلص لا يشوبه نقيق الميكرفون. نكاد نطير مع ندى الآيات يرطب القلوب، ثم نصلى ركعتي الفجر فرادى والصبح مجتمعين فى خشوع، ما يزال زادي حتى اليوم. نختم الصلاة فى متابعة نشيطة للإمام.

نعود إلى البيت ونجتمع فى حلقة حول جدى، نردد معه اسم الله الأحسن (لطيف) فيلطّف الوجود حولنا. نستمر فى ذلك حتى يعد نساء البيت الافطار فتجتمع أسرة كبيرة تتقاسم كل شىء حتى الطعام والشراب والهواء. لا فقراء فى الأسرة أو أغنياء. الكل ينتج ويصب انتاجه بين يدى الجد، وهو يرعى احتياجات الجميع والفائض يدّخر بعضه ويشترى ببعضه الآخر بعض الكماليات. ينتهى الافطار فنرتدّى ملابسنا ونذهب إلى الكتاتيب أو إلى المدارسَ فى ضجيج الكتاكيت.

ينتهى اليوم الدراسى. نعود إلى البيت نغيّر ملابسنا ونذهب فى سرعة الجن إلى الغيط نعمل بجانب الجد فى تنافس كبير. نعود إلى البيت نتناول العشاء (فقد كانت وجبة غداء دسمة تقدّم فى المدرسة).

نذاكر قليلا ويبدأ لقاء سمر حول جدنا أو حول أحد الجدود عند الجيران. فالقرية توزع نفسها فى «تباديل وتوافيق» يومية فى حلقات حول الجدود. وتبدأ الحكايات والنكات وحلقات السّمر بل وبعض الرقص والغناء ويأتى النعاس يغلق الجفون فننفضّ إلى حصائرنا (وليس أسرّتنا) نستلقى عليها فتنفرد ظهورنا وأعمدتنا الفقرية حتى يوقظنا الجد فى الصباح.

لم يكن تقاسم الأشياء داخل كل بيت بل على مستوى القرية فكلما نقص شىء من بيت طرق أقرب بيت يطلبه. وكان فى القرية فقراء لهم نصيب من دخل الجميع فوق ما يدخل لهم من عملهم. فوق ذلك فالقرية مليئة بالنماذج الفولكلورية لكنها كانت تتولى دور مهرج السيرك للقرية كلها فالكل يتقاسم الفرح والأحزان بشكل صادق. الناس تصنع فى أوقات البطالة الموسمية للزراعة جزءا من احتياجاتهم. وفى كل الأوقات ينتجون كل غذائهم !

غبت عن القرية سنين وعدت. احتلت المبانى جزءا كبيراً من الأرض الزراعية. تصميم القرية حول ميدان فسيح كالمسرح الرومانى تشوّه. شغب عمرانى على حساب الخضرة والهواء والجمال. المسجد يهز جدران القرية بميكرفون عتيق. الناس كسالى يستيقظون مع الضحى. الزرع حزين مهمل والأرض البور تشبه قرعاً أصاب القرية. والسيارات تتحرك وحولها التراب والدخان يلوّث البيئة والرئتين. الجميع يتحلقون حول أجهزة الفيديو والتليفزيون حتى ساعات متأخرة من الليل. مقاهى ونرجيلة وشاي أسود ودومينو وكوتشينه.

لا سامر ولا «حكاوى». وينقرض الفولكلور. ضجيج يأكل الهدوء. مشاجرات. الجد ينزوى فى مكان منعزل. لا يتقاسم الناس شيئا إلا انفاس النرجيلة وأشرطة الفيديو. الفقراء لا يطرق أحد بابهم بالعطاء أو العمل. يشترى الناس خبزهم وغذاءهم من المدينة. بدلا من مصابيح الكيروسين مصابيح كهرباء دون إعداد القرية لاستقبالها فتكثر الحرائق. يوجد نادٍ فى القرية بدلا من لعب الكرة الشّراب، وحدة صحية بدل حلاق الصحة، مدرسة بدل الكتّاب. مجلس قرية بجانب العمدة والخفراء. سيارة نصف نقل بدل الكارّو. القيم فى متاهة والعلاقات فى اضطراب والادارة سيئة وروتينية والمدرسة عشة دجاج بيوم مدرسى قصير ولا تقدم وجبة الغداء. من يذهبون لصلاة الفجر تلامذة وآخرون يطلقون اللحى والعقيرة بالصياح وتهديد القرية كلها بحريق الجحيم. لكن القرية تلتقى كلها لصلاة الجمعة خلف الخطيب والامام الذى ما زال من أيام جدى يردد نفس الخطب حتى أن الناس أعطوا خطبه أرقاماً ويراهنون أسبوعيا فى لعبة حول الرقم الفائز فكلٌ يتوقع رقما !

مات جدى قبل التغير (كان من أهل الُخطْوة وحفيد علماء) أعلن موعد موته فى شكل درامى. انشق له جدار المسجد أكثر من مرة وخرج منه خادم الاسم الأحسن لله (لطيف) يسأله : ماذا يريد ؟ فيجيب : اللطيف نفسه. دخل المسجد يوم الثلاثاء فى كبد الليل ليتهجد قابله عند المدخل شبح صديق ميت. سلم عليه قبل أن يدرك هويته. كانت يده أشواكا. وقال له : «لستُ سوى خادم (اللطيف) جئتك فى صورة حبيب لك مات لأقول لك : كنت تريد اللطيف، واللطيف يريدك يوم الخميس بعد صلاة العشاء حتى يصلي عليك المؤمنون صلاة الجمعة. عاد إلى البيت وأعلن موعد موته ويده تنزف دما. تراكم النّاس حوله بطلبات مكتوبة يرجون فيها لطف اللطيف. قبلها ودفنت معه، ويقولون إنّها لُبِّيت جميعا.

الناس الآن فى القرية لا يعلنون عن موعد موتهم لأنهم قبل الموت لا يعيشون. والسؤال : أى القريتين أفضل قرية جدّى أم قرية اليوم ؟ أجابنى صديق : «المأساة أن قرية اليوم لم تنبت من بذرة قرية جدّك. إنها نبت شيطانى». ورغم هذه الاجابة الحزينة فاننى أميل إلى قرية اليوم وابحث عن «جناينى» لتقليمها لأنها طفرة غير مخططة لقرية جدّى، ولن تكون قط ـ حسب ظنى ـ نبتا شيطانيا، هبطت إلينا بذوره مع أجنحة الغربان !